منهج تقويم الذات لدى الإمام الغزالي

م.م أوميد مصطفى عبدالله

مستشار وزارة التربية

Omed.mu.ab@gmail.com

الملخص

إن التراث الاسلامي غني بالعلوم والنظريات المختلفة ، لو استخدم استخداماً جيداً لأغنانا عن كل ما هو دخيل في ثقافتنا وحضارتنا، فقد اجتهد العلماء المسلمون وابتكروا وتفننوا في شتى المجالات، ومن العلماء الذين بذلوا جهداً في خدمة الإسلام والمسلمين والإنسانية الإمام الغزالي رحمه الله، وتقويم الذات عند الغزالي هي رسالة التنمية بأبعادها الروحية والعقلية والخلقية والاجتماعية، فقد عالج أئمة المسلمين ومفكريهم وعلمائهم تنمية الذات وتقويمها منذ العهود الأولى، ولهم مواقف وطرق وأراء سديدة، ومناهج أصيلة في هذا المضمار.

الكلمات المفتاحية: المنهج، تقويم الذات، الإمام الغزالي.

Abstract

The Islamic heritage is rich in various sciences and theories, if used well to enrich us about everything that is foreign to our culture and civilization. Muslim scholars have worked hard, innovated and excelled in various fields, and among the scholars who made an effort in the service of Islam, Muslims and humanity, Imam Al-Ghazali, may God have mercy on him, believe that is a message of development with its spiritual, mental, moral and social dimensions. The imams of Muslims, their thinkers and scholars have dealt with self-development and evaluation since the early ages, and they have sound positions, methods, opinions, and authentic curricula in this field.

Keywords: curriculum, self-evaluation, Imam Al-Ghazali.

المقدمة

ان الاسلام رفع من قيمة الانسان، وان الذات البشرية بحاجة الى تهذيب وتقويم مستمر، ومن العلماء الذين اهتموا بتقويم الذات الامام الغزالي، وهذا ما دفع الباحث للخوض في هذا المجال، ويهدف هذا البحث الى محاولة من أجل التأصيل الشرعي والعلمي للتقويم البشري عبر رؤية الإمام الغزالي لهذا الموضوع، وبيان عظمة علمائنا، ومنهم الإمام الغزالي، وقد سبقوا الغرب في التحدث عن تقويم الذات وتنميته عن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، مقتبسين ذلك من مفاهيم القرآن والسنة وتجربته الفريدة في تزكية وتنمية الذات، واهتمام علمائنا بالجانب الديني والأخلاقي والروحي في عملية التنمية، فعلى الرغم من كثرة التأليف والدورات في موضوعات التنمية البشرية بعامة وتقويم الذات بخاصة، حيث تركز على الحاجات المادية للإنسان وقياس كل العمليات بالمقياس المادي، وعدم اعتبار الجوانب الأخرى في عملية التنمية و تقويم الذات. وتم اختيار موضوع التقويم البشري كونه يتعلق بالإنسان مباشرة ويمس حياته، ابتغاء مرضات الله عز وجل وهو أعظم هدف أرجوه من كتابة هذا البحث وأسمى غاية، والمساهمة في إثراء المكتبة الاسلامية بتقديم دراسة موضوعية عن التقويم البشري من خلال رؤية الإمام الغزالي له، وإبراز المكانة العظيمة والرعاية الإلهية التي حظي بها الإنسان، ومدى اهتمام القرآن الكريم بالشخصية الإنسانية.

وتألف البحث من مبحثين هما (ترجمة الإمام الغزالي والتعريف بكتابه إحياء علوم الدين، و مدخل معرفي لتقويم الذات و صفاتفه وعناصره) وكل مبحث يضم عدد من المطالب. ثم خاتمة.

المبحث الأول: ترجمة الإمام الغزالي والتعريف بكتابه (إحياء علوم الدين)

المطلب الأول: اسمه، ولقبه، ومولده ووفاته.

اسمه: هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (السبكي، ١٩٦٨، ١٩١) لقبه: يعرف بالطوسي، نسبة إلى بلدة طوس التي ولد فيها. (الحموي، ١٩٩٣، ٤٩).وقد لقب أيضاً بالغزالي(بتشديد الزاي): نسبة إلى غزل الصوف، وهو عمل والده، حيث كان يغزل الصوف، ويبيعه في دكانه في طوس، وهذا اللقب على عادة أهل خوارزم، فإنهم ينسبون إلى القصار القصاري، وإلى العطار العطاري، ويقال الغزالي(بتخفيف الزاي): نسبة إلى غزالة، وهي قرية من قرى طوس (ابن خلكان، دت، ٢١٧)، وقد لقب أيضاً بحجة الإسلام وزين الدين الطوسي والفقيه الشافعي،(ابن خلكان، دت، ٢١٧)، ومحجة الدين،(السبكي، ١٩٦٨، ١٩١) ومفتي الأمة، وبركة الأنام.(الأصم، ١٩٨٥، ٣٠)

المطلب الثاني: نشأته ورحلاته

نشانه:

تذكر المصادر التاريخية أن الغزالي نشأ في أسرة فقيرة، وقد ثار خلاف حول أصله أهو عربي أم فارسي. ولم ينته هذا الخلاف إلى يقين، فقد يكون من سلالة العرب الذين تغلغلوا في بلاد فارس منذ بداية الفتح الإسلامي، وقد يكون من الفرس الذين غلبت عليهم الأسماء العربية لعراقتهم في الإسلام. كان والد الغزالي رجلاً فقير الحال، ولكنه كان مؤمناً صالحاً، كثير التضرع إلى الله، يخشى دوما عاقبته، أنجب ولدين أسماهما محمداً وأحمد، وسعى جاهدا أن ينشئهما نشأة علمية دينية، فلما حضرته الوفاة وصى بهما إلى صديق متصوف من أهل الخير، وقال له: "إن لي لتأسفاً عظيماً على تعليم الخط، أشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما، ولا عليك أن تتخذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما، فلما مات، أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن نفذ المال اليسير الذي تركه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهم"، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تذهبا إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، (الشرباصي، ١٩٦٠، ٢٣) فوافقا على ذلك، وكان ذلك الرجل الصالح هو السبب في سعادتهما وعلو منزلتهما، وكان الغزالي يذكر ذلك، ويقول طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. (السبكي، ١٩٦٨، ١٩٣)

رحلاته ودراسته:

تعلم الغزالي في بداية أمره طرفاً من علوم الشريعة في بلدة طوس، على يد الشيخ أحمد ابن محمد الرانكاني، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، فأخذ عنه، وقد حرص الغزالي حرصاً شديداً على أن يحفظ جميع ما يأخذه عن شيوخه،(السبكي، ١٩٦٨، ١٩٥)

الحت عليه نفسه بالسفر ثانية لطلب العلم فسافر من طوس إلى نيسابور، وهناك تتلمذ على يد إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ولازمه، وجد واجتهد حتى برع في العلوم الشرعية، وأجيز في تدريسها، ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي، فخرج من نيسابور إلى بغداد لحضور مجلس نظام الملك فأكرمه، وفوض إليه التدريس في مدرسته النظامية بمدينة بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأعجب الخلق حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، وإشاراته اللطيفة، ترك التدريس بعد ذلك في هذه المدرسة، وقصد الحج، واستناب أخاه أحمد سافر في التدريس إلى دمشق في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، فلبث فيها أياماً يسيرة، ثم توجه إلى بيت المقدس، فجاوره مدة، عاد بعدها إلى دمشق، ثم تركها وقصد مصر، وأقام بالإسكندرية، ثم رجع إلى بغداد، وعقد

فيها مجالس للوعظ، وبعد مدة عاد إلى بلدة طوس، مقبلاً على التأليف والعبادة والعزلة، ثم انتقل إلى بغداد ودرس ثانية بالمدرسة النظامية، ورجع بعدها إلى مدينة طلوس، وانقطع للعبادة والتأليف حتى وفاته،(السبكي، ١٩٦٨، ١٩٥).

وقد كانت حياة الغزالي حافلة بالإنتاج العلمي وممارسة النشاطات المختلفة، منها الوعظ والإفتاء والتدريس والتأليف والأعمال الخيرية.

المطلب الثالث: تعريف المنهج والتقويم والذات

أولا: المنهج

النهج لغة: الطريق الواضح البين، والمنهج والمنهاج: الطريق الواضح. والمنهج: الخطة المرسومة وهي ومنه محدثة منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم ونحوهما، وجمعه مناهج، ويقال: المنهج والمنهج. (عبدالقادر، ٢٠٠٧ ، ١١) نهج وأنهج لغتان، ونهج الطريق سلكه، واستنهج الطريق صار لهجاً واضحاً بيناً، والنهج الطريق المستقيم.. يقال نهج الطريق نهجاً ولهوجاً بمعنى وضح واستبان.

ويقال: نهج الطريق: بينه وسلكه. والمنهاج: الطريق الواضح) وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

والمنهج: الخطة المرسومة وهي ومنه منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم ونحوهما، وجمعه مناهج، ويقال: المنهج والمنهج(عبدالقادر، ٢٠٠٧، ١١).

ثانيا: التقويم

التقويم لغة: هو التعديل والاستقامة وإصلاح الاعوجاج.

والتقويم اصطلاحاً: عملية منهجية تتضمن جمع معلومات عن أمر معين تستخدم في الحكم عليه على أساس أهداف ومعايير محددة مسبقاً من أجل تطويره وتحسينه. إن التقويم أشمل من القياس والتقييم وهو يقوم مقامهما ولا يقومان مقامه.

وبناء على ما تقدم من شمول مصطلح التقويم وأصله اللغوي، وذكر القرآن الكريم له ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: ٤] وما ورد من كلمات كثيرة ضمن اشتقاقات هذا المصطلح في القرآن الكريم فإنني سوف أعمد إلى استخدام مصطلح التقويم في بحثي هذا.

ثالثا: دلالة التقويم

١- يأخذ التقويم أحيانا معنى النصيحة ومفهومها في دائرة الأخوة الإسلامية ودعوة الرسل عليهم السلام، ومثال ذلك: قوله تعالى ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [سورة الأعراف الآية ٧٩] وقوله تعالى ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف الآية ٦٢]، وقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الأعراف الآية ٦٨] وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة: قلنا: لمن يا رسول الله. قال: لله ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم". (رواه مسلم). ويأتي مقام النصح هنا من استثارة وازع التقويم والتصحيح في النفس البشرية تجاه ما تشاهد من مواقف مشينة تحتاج إلى تعديل وإصلاح، أو مواقف صحيحة تحتاج إلى تثبيت وإطراء، فيسبق التقويم والحكم والنقد هنا عملية النصح التي تكتسي ثوب الإشفاق والحب والرحمة.

٢- يأتي التقويم أحياناً بمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقاعدة إسلامية وقائية تحول دون تفكك المجتمع واندثاره ابتداء من دائرة السلطان والقيادة، وانتهاء بدائرة الشعب بجميع شرائحه، والنصوص في ذلك كثيرة منها ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ﴾ [سورة التوبة الآية ٧١]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" حديث حسن رواه الترمذي.

وبأخذ التقويم بهذا المنحى سلطة فردية قد يقوم به كل فرد قادر عليه شاعر بمسئوليته، أو سلطة دستورية قانونية عبر مؤسسات الدولة في ما كان يسمى ديوان المظالم ، أو ديوان الحسبة عبر عصور التاريخ الإسلامي سابقا، أو ما يتمثل في آليات قانونية مستحدثة تؤدي هذا الدور في واقع المسلمين المعاصر. (الحوامدة ، ٢٠٠٢، ٢٣)

٣- يبرز التقويم أحيانا أخرى بمفهوم القضاء وهو الحكم بين المتخاصمين بالعدل على أساس الشريعة، وإن كان أكثر ما يخص القضاء عموما هو فض الخصومات وحل مواطن الخلاف بين الناس ، ويتدخل في ذلك أنظمة ومرافعات وشهود .. الخ، ومن النصوص في ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [سورة الأحزاب الآية٣٦]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء الآية ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة يونس الآية ٤٧] ويدخل التقويم

كذلك ضمن مصطلحي الجرح والتعديل على مفهوم مدرسة مصطلح الحديث وعلم الرجال، وهي المدرسة التي يفتخر بها التراث الإسلامي.

٤-يجيء التقويم أحياناً بالمفهوم التربوي التعليمي في دائرة "التربية والتعليم ويختص هذا المفهوم أكثر ما يختص في مجال تعليم الطلبة وتربيتهم والتعامل معهم عبر آليات وأساليب وإجراءات في موضوعي القياس والتقويم مع مراعاة المستويات العمرية والفروق الفردية، والمكتسب الفطري، وتأثير البيئة، والقيم والأهداف، المناهج والعاملين بها، وبكل ما يختص بالعملية التعليمية، وللتربية الإسلامية ونظامها التعليمي قدم راسخة في هذا الباب انطلاقا من نصوص الكتاب والسنة، ومناهج علماء المسلمين في القديم والحديث، ومن النصوص في هذا المجال قول الله تعالى:﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [سورة القيامة الآية ١٤] أي في معرفة ضعفها وخطأها ومن ثم تقويمها وتصويبها، وهذا نوع من النقد الذاتي للنفس، ويقع في نفس المجال قول الله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٣٥]؛ وذلك لمراقبة الله والشعور الدائم بمعيته وعلمه بما في نفوسنا، مما يتولد عنه تقويم النفس وتعديل سلوكها على ضوء معيار المراقبة الله سبحانه مما له أكبر الأثر في تحسين العملية التربوية والتعليمية وبناء الرقابة الذاتية وإحياء صفة التقر والمحاسبة في ضمائر كل من له علاقة بها.

ويكون التقويم الذاتي التربوي كمثال على هذا المفهوم من مفاهيم التقويم في دائرة التربية والتعليم قبلياً وبنائياً وختامياً، قبلياً: أي قبل الفعل الذي سيقوم به الفرد فيخضعه ابتداء للتقويم لما عنده من معايير مسبقة لمثل هذا الفعل. وبنائيا: أي التقويم الذي يقع من المرء أثناء عمله حتى لا ينحرف ويكمل عمله على وجه الصواب، وختامياً: أي هو التقويم النهائي الذي يصدره الإنسان على عمله بعد إنهائه وإنجازه على أساس المعايير الإسلامية قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٨١].

٥- ويتعدى مفهوم التقويم كذلك إلى دائرة علمية حديثة من ميادين العمل البشري وهو ميدان الإدارة والقيادة في مختلف الميادين والمجالات، ويشكل التقويم بمفهومه الإداري إحدى عمليات الإدارة الخمسة، وهي: التخطيط، التنظيم، التنسيق، المتابعة والتقويم، ويشكل التقويم كما في علم الإدارة حلقة مهمة، إذ لا فائدة من كل ما سبق من عمليات إدارية دون التقويم .

فبالتقويم يتم الحكم على كل ما سبق بالسلب أو الإيجاب، أو كليهما، ومعرفة نسبة تحقيق الخطط والأهداف الموضوعة مسبقاً. فيعرف بذلك المطلوب حالياً والمحقق فعلياً والمأمول

مستقبلياً، وأصبح للتقويم على هذا الأساس مؤسسات تخصصية تقوم بالتقويم لمن أراد أن يقوم نفسه لو خطته أو مؤسسته وهكذا.

وقد أورد القرآن الكريم بعض معايير التقويم لمن يقوم بالعمل الإداري والقيادي كطاقة بشرية هي الأساس في العملية القيادية على لسان سيدنا يوسف عليه السلام في قصته مع ملك مصر بقوله ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف الآية ٥٥]. فقوّم يوسف عليه السلام نفسه ووصفها بصفتين عزيزتين مهمتين للقيادة الاقتصادية في حياة الدول والشعوب هما (الحفظ) بمعنى الأمانة والصدق و(العلم) بمعنى الخبرة والتجربة والتخصص. ويظهر هنا جواز تزكية الإنسان لنفسه وتقويمها بما يعرفه عنها من خير في مواطن المصلحة العامة ونفع الآخرين، وعند عموم الفساد، وعدم وجود الكفاءات القيادية، شرط أن يكون ما يصف به نفسه متحققاً (الحوامدة، ٢٠٠٢، ٥٥).

رابعا: الذات لغة:

النفس والشخص، يقال في الأدب: نقد ذاتي: يرجع إلى آراء الشخص وانفعلاته، وهو خلاف الموضوعي. (محدثه). ويقال: جاء فلان بذاته: عينيه ونفسه. ويقال: عرفه من ذات نفسه: سريرته المضمرة. وجاء من ذات نفسه: طبعا (الوسيط، ١٩٨٩، ٣٠٧)

الذات إصطلاحاً

هناك الكثير من التعريفات لمفهوم الذات ومن بينها تعريف أكثر دقة، وهو أن الذات هي عبارة عن منظومة يضم مجموعة من الأدوات اللازمة لتدبير شؤون الحياة، وتتكون من الأفكار والمشاعر والقيم والسلوكيات

والعادات والتفاعلات، بمعنى آخر الموارد المعنوية التي يملكها الشخص، وكلما زادت هذه الموارد كلما كان الإنسان أكثر قدرة على قيادة حياته وحل مشكلاته (لويح، ٢٠١٣، ١٤).

المبحث الثاني: مدخل معرفي لتقويم الذات و صفاته وعناصره

المطلب الأول: مدخل معرفي لتقويم الذات

الفرع الأول: مدخل لتقويم الذات

إن الإنسان في الرؤية الإسلامية هو مركز الكون، ودليل ذلك تسخير الله جل وعلا له كل مايمكن أن يصل إليه، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية: ١٣)؛ لذا فإن فكرة (التسخير) التي أبرزها

القرآن الكريم في مواضع كثيرة لا تهدف إلى حث المسلم على شكر الله جل وعلا والاعتراف بفضله فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى تقرير (مركز الإنسان) في هذا الكون، والسلطان العظيم الذي أمنة الله تعالى به؛ ليستثمر كل ما حوله في مصلحته، وليقوم بتوجيه إرادته وطاقاته كلها نحو الحصول على رضوان الله تعالى، وليعيش في كنف العبودية له. ويوجد إجماع على أن الإنسان هو محور التنمية، وهو غايتها والعنصر الفاعل في تنمية الحياة، أعني أنه وسيلتها، عليه، فإن التنمية يجب أن تتجه إلى تنمية هذا الإنسان بكليته مادة وروحاً، وأن يعرف مكانته ورسالته في الحياة.

أن تنمية الذات تعد من أهم مجالات التنمية البشرية، فالعلاقة بينهما علاقة تحديد وتكامل، أي أن مفهوم التنمية البشرية يحد مفهومتنمية الذات، كما يحد الكل الجزء، فيكمله ويغنيه ولكن لا يلغيه، ولكنها ليست علاقة تطابق كما يرى بعض الباحثين.

وتهدف تنمية الذات إلى تنمية مهارات الحياة العلمية كمهارات القيادة والتواصل وتنظيم الوقت. واعتبر الإسلام الإنسان قيمة حقيقية وركناً أساساً في الحياة، بما أودع الله فيه من القدرة الجسدية والذهنية وقابلية التكيف المستمر، ودليل ذلك أنه جعله مكلفاً مسؤولاً، يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله في الأرض، التي خلقت له خلقاً فريداً متميزاً، وأودع الله تعالى فيه كل مايساعده على العيش والحركة والتغيير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: ٣٠) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة : ٢٩)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠] ، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]

لقد حمل الإنسان هذه الأمانة في الأرض وليس في غيرها، ولذلك، وجب عليه أن يفهم نفسه فهماً دقيقاً، وأن يعلم بأن طاقاته العقلية الكبيرة هي مدار تكليفه.

ومنهج التقويم في القرآن بذلك هو الدستور الذي يبرز قيمة الأشياء سلباً وايجاباً، ومن ثم تعديلها وتصويبها حسب معايير الخالق لخلقه، وصولا إلى هدف العبادة والاستخلاف بعدل وشمول في الدنيا، وتراها أو عقابا في الآخرة. ولقد بلغت الآيات التي ذكرت مصطلح التقوم ومشتقاته اللغوية في القرآن الكريم حوالي (٦٤٤) آية تركزت معانيها في إقامة الأمر بمعنى: الدوام عليه وإصلاحه والنهوض به كما قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[الكهف:٧٧]، والاستقامة: بمعنى السير السليم على الأمر والدين القيم بمعنى: المستقيم الذي لا عوج فيه، والتقويم والأقوم بمعنى: الأحسن في تأليفه واعتداله وصوابه

وعدله، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤] وغير ذلك من المعاني. ويشكل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:١]، وشعار القرآن الدائم في الإصلاح والعدل والحكم والتقويم، وروحه الدائمة في ضرورة التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والجمال والقبح.

ويقرر قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وهي قاعدة العدل والحكم بين الناس بميزان الله، وتقويمه لهم بالقسط بناء على ما كسبوا وعملوا في مختلف شؤون حياتهم.

ومن هنا فإن رسالات السماء كلها تشكل مناهج تقويم للبشرية تعيدها إلى مسار البيئات والميزان والكتاب كلما لدث عن الطريق وتتكبت عن الجادة. (الحوامدة، ٢٠٠٢، ٥٧)

في ضوء ما سبق نستطيع أن نخلص إلى المفاهيم الاتية:

١-أن التقييم لغة: هو توزين الشيء وإعطاء قيمة له .

١- اصطلاحا: الحكم على الأشياء وتوزينها وبيان قيمتها سلبا وإيجاباً على ضوء معلومات سابقة ومعايير محددة .

الفرع الثاني: تنمية الذات

إن تنمية الذات في الفكر الإسلامي ليست مرحلة تنتهي عند حد معين، بل هي مستمرة استمرار حياة الإنسان وقدرته على أداء رسالته، بطاقاته التي منحها الله له، وهذا فارق . كما أشرنا سابقاً. بين تنمية نستند إلى أصل شرعي، وبين تنمية لا تعتبر هذا البعد. لأن التنمية الذاتية هي تحقيق لأوامر شرعية، لانعرف الوقوف عند زمن معين، ولا عند مكان معين، ولا عند قوم معينين، بل هي تحقيق مسؤولية تبدأ من مسؤولية الفرد عن ذاته وتصل إلى مسؤوليته عن البشرية كلها، فتكون ذاتية وبشرية وشاملة ومستدامة، ولكن وفق الرؤية التي تضع في تصورها: الله، الكون، الإنسان، وتعمل لإعمار الكون، طلباً لأجر ابقى من مجرد الرفاهية في الحياة، وإن كانت تعمل لها ولا تتكرها، كراهة أو تحريماً (العجمي، ٢٠١٠،٥١)، قال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله

التي أخرج لعباده والطيبات من الزرق﴾ (الأعراف: ٣٢)، وقوله تعالى ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنمن نصيبك من الدنيا﴾ (القصص: ٧٧)

صفات الشخص النامي ذاته

إن أهم الصفات والسمات التي تميّز الشخص الذي يقوم بتنمية ذاته باستمرار عن غيره من الأشخاص العاديين الذين لا يهتمون بتقويم ذواتهم، هي:

١. يعرف ما يريد في الحياة، فهو يملك بيانا مكتوباً لرسالته في الحياة، ويعي جيداً دوره في جعل العالم مكاناً أفضل للعيش الكريم.

٢- يعرف ما يريد في الحياة .

٣- يتميز بقدرات ذهنية العالية .

٤- يملك نسبة عالية من الذكاء العاطفي و الإجتماعي .

٥- يعيش حياة متزنة (لويح، ٢٠١٣، ٢٢).

شروط الأساسية للتقويم الذات

١. وجود هدف أعلى

٢. وجود قناعة بضرورة التغيير .

٣. قبول الذات .

٤. شعور بالمسؤلية .

٥. الإدارة الصلبة .

٦. شيء من التحدي .

(بكار، ٢٠٠١، ١٦٢ – ١٦٥)

الأهداف التقويمية عند الغزالي

١. الهدف الشمولي .

٢. الهدف الإنساني .

٣. التقرب إلى الله .

المطلب الثاني: عناصر التقويم

عملية التقويم عملية منهجية شاملة تبدأ بالتشخيص وبيان الإيجابيات والسلبيات وتنتهي بالتعديل والإصلاح والتطوير، تتشكل من عدة عناصر هي:

١. المقوِم: الجهة أو الشخص الذي يجري عملية التقويم، فرداً كانت أو جماعة أو هيئة أو دولة أو غيرها.

٢. المُقوَم: هي الجهة التي تقع عليها عملية التقويم، فردا كان أو جماعة أو قوما. أو فكرة أو خطة أو أي شيء آخر.

٣. موضوع التقويم: هو الحالة أو الموقف المراد تقويمه أيا كان نوعه ومع أي جهة كانت.

٤. أسلوب التقويم: الطريقة أو الكيفية التي يتم بها التقويم، بالقول أو الفعل، أو لكتابة أو المعايشة ... الخ

٥. نتيجة التقويم: هي المحصلة أو الثمرة التي تصل إليها عملية التقويم، سلبا أو ايجابا.

المطلب الثالث: تقويم جنس الإنسان

وردت منهجية تقويم الإنسان على اعتبار جنس الإنسان عبر آيات عديدة في سور عديدة من القرآن الكريم، تحدد صفات وطاقات عديدة لهذا المخلوق، فوصف بالعجلة، والضعف، والجدل، والكرامة، والكبر والبصيرة، وأنه خلق من طين، ومن نطفة من ماء مهين، ومن نطفة أمشاج، ووصف كذلك بالظلم، والقتور والجهل، بل إن سورة بأكملها سميت سورة الإنسان تحمل الرقم (٧٦) في ترتيب المصحف الشريف وآياتها (٣١) آية، وهي سورة مدنية، وسنطوف في ظلال هذه الآيات ونطلع على معانيها، وما قاله العلماء والمفسرون بشأنها، محاولين استنتاج ما يصب في مادة هذا المبحث في منهجية تقويم القرآن للإنسان كإنسان.

أ- ابتداء فقد ركزنا على الآيات موضع الشاهد من المبحث، وهو ذكر الإنسل وتقويمه فقط، ولم نشأ ذكر الآيات التي سبقت، أو تلت تلك الآيات المحددة، خشية الإطالة والتوسع، رغم أن بعض الآيات لها مساس بصورة أو أخرى في الشاهد المذكور

ب-رغم أن الآيات المحددة قدر ركزت على تقويم الإنسان في مجال تحديد قيمته، ومادته وصفاته بالدرجة الأولى كتشخيص وصفي، إلا أنه من المعروف بأن القرآن يقوم بهذا من أجل الوصول إلى الهدف النهائي، والنتيجة المقصودة التي تقود إليها مقاطع السور حول الأحداث والمواقف المقومة من أجل التحسين، والتعديل والتطوير المطلوب، فتح بذلك ضرورة غائية التقويم ومقصوده للخروج من مجرد النقد لذات النقد، أو التقويم لذات التقويم.

ت-ركزت الآيات في تقويم الإنسان على أصل مادته وخلقه وتكوينه، إذ يشكل ذلك عمق الحكم في مبدأه حتى منتهاه – وهذا ما يقود إلى شمول منهج التقويم وعمقه وتوازنه في القرآن الكريم- فكثيراً ما يبتر الناس منهج الحكم والتشخيص والتقويم، فيقومون الشكل وينسون الجوهر، ويحكمون على النتيجة وينسون المقدمة، فيأتي الأمر مشوهاً مبتوراً ساذجاً. ومع التركيز على أصل الإنسان في مادته في القرآن، إلا أن ذلك لم يكن في معزل عن تطوره فيما أعطي من صفات، وكمالات نسبية، وملكات وضعف في إطار "إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً" ثم يتم الاستثناء بعد ذلك لصنف الشاكرين المؤمنين أصحاب الملكات الملتزمة، والصفات المطلوبة، للخروج من دائرة التعميم، والمبالغة في التقويم، التي تزخر بها أذهان الناس ومخرجات أحكامهم، وانتقاداتهم/ لكافة الأحوال والأشخاص والأفكار.

ما ورد في سورة العصر: قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [الاخلاص: ١-٣]. والمراد بالإنسان: الجنس، واللام لام الجنس وهو الراجح، وحكم الله بالوعيد الشدي لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس، إلا من كان آتياً بأشياء أربعة، أو متصفاً بصفات أربع، وهي: الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وهنا تقويم مجمل وصف الإنسان بالخسارة، وحكم عليه هكذا مطلقاً، ثم يكون الاستثناء لشريحة الطائعين الفائزين، وذلك أمر عظيم وقضية مصيرية، وهي هنا من حالة الإنسان ومدبر أمره، حكمه العدل وتقويمه الصواب، فهل انتبه الإنسان هذا المخلوق المكرم المتوعد في أن الرابح الخاسر في آن واحد، وقد يتراءى للإنسان أن الفوز صعب، والتقويم صريح ودقيق. فهو كذلك من جهة ضرورة العدل والوضوح والبيان من الخلف سبحانه، وهو في المقابل ميسور وممكن لمن أراد وتوجه. ولقد نشأت أجيال كاملة على مساحة الفوز والنجاح تطبيقاً عملياً، والتاريخ شاهد، والحاضر زاخر لمن كان له قلب أل ألقي السمع وهو شهيد. (الحوامدة، ٢٠٠٢، ١١٠)

المطلب الثالث: وسائل التقويم

يذكر القرآن الكريم أن من أهم ما يهدف إليه حث العقل الإنساني على التفكر والتدبر، فيقول سبحانه: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]

ويقول تباركت أسماؤه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ويذكر لنا القرآن الكريم أن القصص التي احتلت مساحة واسعة منه تهدف إلى إثارة فكر الإنسان حتى يستخلص العبر الهادية للناس في مسيرة الحياة، (بكار، ٢٠١٠، ١٧)

فيقول سبحانه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وان قصة إجلاء بني النضير يتطلب من المسلمين ان يقيّموا أحوالهم حتى لا يقعوا في مثل ما حل بهم.

المطلب الرابع: الغزالي ونظرية التشكيك

عرض الغزالي نظرية التشكيك قبل "ديكارت" وتوصل الى الحل نفسه، وربما يكون "ديكارت" قد وصله عن طريق الغزالي، وهناك نص للغزالي في هذا الشأن، قال: فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان في المحسوسات، ومن أين الثقة بها، وأقوى الحواس حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف" (سليمان، ١٩٦٧، ٢١٤)

كان الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) يقول: (أنا أفكر إذن أنا موجود) فهو بهذه العبارة الموجزة يجعل التفكير دليلا على الوجود، بل يكاد يحصر الوجود في التفكير، وكأنه يريد أن الذين عطلوا ملكات التفكير لديهم لا يوجد دليل على أنهم أحياء، وإذا سلمنا بصدق هذه المقولة فإن كثيراً منا اليوم يعيشون حياة نباتية فيها الطعام والشراب والتنفس والنوم والتكاثر . . . ولكنها خالية من التفكير، وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يندفعون إليه بشكل ذاتي في بعض الأحيان، وبضغط من الآخرين في أحيان أخرى حتى لا يختل نظام القطيع الذي يسوقونه، وحتى لا تتعرض مصالح العباد والبلاد للخط. (بكار، ٢٠١٠، ١٧)

وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنصب دليل ولا ترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك

النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة. (سليمان، ١٩٦٧، ٢١٥)

ثانيا: نقد الذات:

إن نقد الذات يمثل إحدى قمم الموضوعية، فهو إقرار ببشرية بني آدم التي لا تستطيع أن تخرج من دوائر الجهل والقصور والخطأ. إلا من عصم الله، وفي هذا السياق يحدثنا الله تعالى عن أبينا آدم وأمنا حواء حين أكلا من الشجرة، وبدت لهما سوآتهما، وعرفا الوقوع في المخالفة؛ فإنهما أسرعا إلى الإنابة قائلين: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

والتوبة لا تكون إلا بعد اكتشاف خطأ، واكتشاف الخطأ لا يكون إلا بعد صحوة عقل، أو صحوة ضمير، وكل منهما أمارة النضج والرقي، وهذه السنة التي سنها أبونا آدم لنا ستظل خميرة يستنبت فيها الصالحون من أبنائه صنوفاً من الأوبات والمراجعات. وهذا موسى عليه السلام يعترف بخطئه حين قتل القبطي نصرة للإسرائيلي، ويقول ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا نبي الله يونس يعلن بكلمات ملؤها الضراعة والثناء على الله سبحانه وتعالى كما ذكرت في كتابه الله العزيز: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

وهذه بلقيس ملكة سبأ تعلن توبتها من عبادة الشمس قائلة: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]

إن نقد الذات سيظل مقياساً دقيقاً للوعي بالذات وللوعي بالماضي والحاضر، والأمة التي تحرم منه تحرم من خير كثير(بكار، ٢٠١٠، ٥٥)، وإن اختلفت أشكالها ترتبط بعلل كلية من شأنها أن تبث التناسق والانسجام فيما بينها. وإن الذي دفع علماء المسلمين إلى هذا المسلك في منهج الاستدلال أن عندهم نصوصاً تعبدهم الله تعالى بالعمل بها، وليس عند اليونان ولا الغربيين اليوم مثل تلك النصوص؛ مما جعل منهجهم متفرداً، ولم يكتف علماء المسلمين باختطاط منهج في الاستدلال خارج عن تعاليم أرسطو بل إن بعضهم وجه سهام النقد إلى ذلك المنطق، حقاً إن بعض من ينتسب إلى الإسلام، وينتسب إنتاجه العلمي إلى الحضارة الإسلامية قد افتتنوا بتعاليم أرسطو، حتى لقبوه بالمعلم الأول؛ و أن بعضهم تبنى كثيراً من فلسفته؛ حتى سمي أحدهم وهو الفارابي بالمعلم الثاني؛ لكن ذلك لم يكن يمثل سوى الشذوذ الذي يؤكد القاعدة. (بكار، ٢٠١٠، ١١٣)

معروف عن الغزالي أنه يتجنب الأسماء الفلسفية للعلوم والنظريات التي يتبناها ويضع لها أسماء أخرى من حقل التفكير العربي الإسلامي، ولقد ألف في المنطق عددا من الكتب لم يطلق على أي منها اسم "المنطق" بل أعطاها أسماء من قبيل: محك النظر، معيار العلم، القسطاس المستقيم، وألف كتابا في الأخلاق أو العلم العملي وسماه "ميزان العمل"، وعندما يكون بصدد رأي يتبناه، وهو لفلاسفة، ينسبه لـ "أهل النظر" وهكذا. أما "إحياء علوم الدين" فهو عنوان من مبتكراته فعلا، ولكن ما أن يأخذ القارئ في مطالعة الكتاب حتى يجد نفسه أمام مصطلحات غزالية "جديدة"، أعنى أسماء جديدة لموضوعات قديمة، وفي مقدمتها ما يسميه بـ "علم المكاشفة" و"علم المعاملة"، وبلغة الصوفية: الأحوال والمقامات، وبلغة الفلاسفة: الفلسفة النظرية والفلسفة العملية، أو العلم النظري، والعلم العملي.

وبدون الانشغال بمناقشة هذا النوع من المقارنات ومدى مطابقة كل طرف مع الطرف المقابل له، فإن شيئا واحدا مؤكدا، هو ما يهمنا هذا، وهو أن الغزالي أراد من كتاب "إحياء علوم الدين" أن يكون جامعا لـ "علم المعاملة". يقول الغزالي: "والمقصود من هذا الكتاب هو علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رحمة في إبداعها الكتب، والمقصود بـ"الرحمة هنا" رخصة الدين كما يقررها الفقهاء، والغزالي لا يريد أن يتهم بما يتهم به الفقهاء المتصوفة أصحاب المكاشفة" الذين يقول معظمهم بوحدة الوجود (أو وحدة الشهود أو الاتحاد أو التوحيد أو الفناء، والمعنى واحد في نهاية التحليل). لذلك تجنب الكلام في التصوف (النظري) في هذا الكتاب، بينما ألف فيه بأسماء أخرى مثل "الفنون به على غير أهله" و"مشكاة الأنوار"، تماما كما صنف في "التصوف" (العملي) باسم "علم المعاملة"، على الرغم من أن "علم المعاملة" هذا لا يتطابق تمام التطابق مع ما يذكره المتصوفة في "العمل"، ومهما يكن من أمر فـ "إحياء علوم الدين" ينتمي إلى الطرف الذي يقع فيه "العلم العملي" أو الأخلاق، في الفلسفة، و"علم المعاملة" في التصوف.

أما علاقته بـ"علم الأخلاق" وبالأخلاق اليونانية بالضبط فتقع كما قلنا على مستوى بنيته العميقة، أعني وراء تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول أو ما في معناها، وهذا ما سيتضح من خلال هذا الفصل كله، وأما علاقته بـ"التصوف" فاللافت للانتباه أن الغزالي يتجنب استعمال لفظ "التصوف" في هذا الكتاب، فهو لا يذكره بالاسم إلا عرضا، ولا يستعمل من مصطلحات الصوفية إلا الشائع منها، بل كثيرا ما يضع في مقابلها مصطلحات من عنده، كما يتجنب ذكر المتصوفة" بهذا الاسم إلا نادرا ويستعمل بدله أسماء عامة مثل "الطالبين"، "الصديقين" الخ. أما الفقهاء فهو يذكرهم ويدخل معهم في سجال ويتهمهم بتهم من جنس ما اتهمهم به خصومهم المتصوفة، ولكنه بالمقابل يعلن أنه اختار بناء كتابه على نفس أبواب الفقه لأنه كما يقول رأى

"الرقية من طلبة العلم صادقة في الفقه والمتربي يري المحبوب محبوب"، ولذلك يتساءل: "قلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا في استدراج القلوب". (الجابري، ٢٠٠٦، ٥٨٧)

"إحياء علوم الدين" كتاب يلبس لباس الفقه ولكنه ليس كتابا في الفقه، وهو وإن كان مثله من "علم الفروع" فإنه يختص بـ "ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة"، أما الفقه فهو "يتعلق بمصالح الدنيا، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا" هذه المقارنة بين الفقه و"علم المعاملة" تذكرنا بالمقارنة التي رأيناها قبل عند الراغب الأصفهاني بين الفقه مكارم الشريعة". والحق أن العلاقة بين كتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة" وكتاب "إحياء علوم الدين" تتعدى هذا النوع من العلاقة غير المباشرة؛ ذلك أن بعض المؤرخين يذكرون أن الغزالي "كان دائما يحمل معه في حله وترحاله "كتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة" للأصفهاني". ومن هنا يمكن القول إن مشروع "الذريعة" للأصفهاني هو الذي أوحى للغزالي بمشروع "الإحياء". وإذا شئنا وضع كتاب "الإحياء" في مكانه من سيان تطور الفكر الأخلاقي في الإسلام كما عرضناه لحد الآن في الفصول السابقة وجب القول إنه منوح تلك المحاولات التي أرادت "أسلمة" الأخلاق اليونانية. والفرق بينه وبين "الذريعة" هو أنه بينما فكر الأصفهاني في مشروعه داخل النظام المعرفي الذي ينتمي إليه: البيان، فكر الغزالي في "إحياء علوم الدين" داخل النظام المعرفي الذي كان يدعو إليه: العرفان. وهذا الفرق على مستوى الأساس المعرفي نتج عنه فرق في غاية الأهمية والخطورة على مستوى النظرة إلى الحياة وبالتالي نظام القيم(الجابري، ٢٠٠٦، ٥٨٧).

يخص الغزالي الفقه بـ"مصالح الدنيا" بما في ذلك عمارة الأرض، ويخص "علم المعاملة" بـ"مصالح الآخرة"، وأن السعادة القصوى عند كل منهما هي في الآخرة، فإن الحياة الدنيا في منظور البيانيين ليست مجرد طريق سفر يشغله المسافر بما يقربه من الحياة الأخرى، بل الحياة الدنيا في نظر البيانيين لها قيمة ذاتية، فالله جعل الإنسان في الأرض خليفة ليعمرها ويمارس فعل الخير فيها ويأخذ نصيبه منها وينشر كلمة الحق في أرجائها الخ، وذلك كله يتطلب التدبير والسياسة، أما المتصوفة فموقفهم من الدنيا هو الزهد فيها والإعراض عنها والاتجاه بالكلية نحو الله لتحصيل حال الفناء.

في رأينا أن الغزالي لم يكتب في "علم المعاملة" بل "تكلم" فيه. فمنذ السطور الأولى يتصرف كما يتصرف "المتكلم": يجادل ويساجل: يدافع عن وجهة نظره ضد وجهات النظر الأخرى، وبعنف أحيانا كثيرة، متهما من يعتبرهم مخالفين له إما بالجهل وإما بالغفلة والقصور، وهو في جداله ومساجلاته يحشد الأدلة من كل نوع لصالح رأيه: ويذكر موضوع الفصل أو الباب أو الكتاب

ويحشد حججا من "النقل" لصالحه، بعضها آيات من القرآن وكثير منها أحاديث ضعيفة ومرويات من هنا وهناك، حتى إذا استنفذ جعبته من "النقل" انتقل إلى عرض المسألة عرضا حجاجيا على طريقة المتملكين: يدلي برأي ويفترض اعتراضات ليرد عليها، وهو في كل ذلك

يصدر عن الذهب الكلامي الأشعري ويكرس وجهة نظره ويؤول مسائل التصوف بما لا يتعارض مع ثوابت هذا المذهب، يحكم بالجواز أو بالتحريم أو بالإباحة على هذا العلم أو ذاك، أو هذا السلوك أو ذلك، يجرم القول بالسببية ويكرس الجبر والتوكل والاستسلام، انطلاقا من أصول الأشعرية وأدبيات الصوفية. وإن كتاب "إحياء علوم الدين" كتاب في تقرير "الفكر الوحيد" في جميع الميادين التي هي أصلا مجال طبيعي لاختلاف الآراء، إنه إعلان بـ "موت الاختلاف" وسد باب، وهكذا يمكن القول إن المهمة التي تدب الغزالي نفسه لها في كتابه "إحياء علوم الدين" لم تكن بيان كيفية "المعاملة" (تطهير النفس ... الخ) بل حمل القارئ على اعتناق رأي معين في "التعامل مع جميع العلوم وأنماط السلوك، وهكذا نقرأ بين ثنايا الكتاب جميع ما قرره من مواقف سلبية في كتبه الأخرى، خصوصا تلك التي ألفها في علم الكلام وفي الرد على الفلاسفة والفرق الأخرى.

الخاتمة

ان تقدير الذات أساس الارتقاء بالنفس البشرية بالاعتماد على كتاب الله وسنة رسوله، وكان منهج الغزالي لا ينفصل عن المنهج الاسلامي ، وبناء على ما عرضنا في الدراسة نوصي بتزويد الآباء والمربين على بناء شخصية الطلبة بشكل متكامل وتحفيز تقديرهم، عبر برامج تربوية هادفة لمساعدتهم على احترام أنفسهم وقدراتهم، وضرورة إجراء المزيد من الدراسات للتعرف على فلسفة الغزالي والمصلحين المسلمين .

قائمة المصادر

القرآن الكريم

١. ابن خلكان، شمس الدين أحمد، ١٩٤٨، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢. الأصم، عبدالأمير، ١٩٨٥م، **الفيلسوف الغزالي** ، ط١، دار الاندلس، الدار التونسية تونس.

٣. بكار، عبدالكريم، ٢٠٠١، **مدخل إلى التنمية المتكاملة**، ط١، دار القلم ، دمشق.

٤. بكار، عبدالكريم، ٢٠١٠، فصول في التفكير الذات منطلقات ومواقف، ط٦، دار القلم، دمشق.

٥. الجابري، محمد عابد، ٢٠٠٦، العقل الأخلاقي العربي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦. الحموي، شهاب الدين ياقوت، ١٩٩٣م، معجم البلدان، ج٤ ، ط١، دار صادر، بيروت.

٧. الحوامدة، سلميان حماد عبدالهادي، ٢٠٠٢، منهج التقويم في القرآن الكريم، العالم الجامعي، كراتشي.

٨. السبكي، تاج الدين أبي نصر بن عبد الكافي، ١٩٦٨م، طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء المكتبة العلمية، ط١، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي وشركائه، دمشق.

٩. سليمان، دنيا، ١٩٦٧، التفكير الفلسفي الإسلامي، ط١، مكتبة الخنانجي، القاهرة .

١٠. الشرباصي، أحمد، ١٩٦٠م، الغزالي والتصوف الإسلامي، دار الهلال ، القاهرة.

١١. عبدالقادر، موفق بن عبدالله بن ، ٢٠٠٧، منهج البحث العلمي وكتابة الرسائل العلمية، جامعة أم القرى ، ط١، دار التوحيد للنشر، مكة المكرمة .

١٢. العجمي، أبو يزيد، ٢٠١٠، التأصيل الشرعية للتنمية الذاتية، ط١، دار السلام، القاهرة.

١٣. لويح أبو ماجد حسن، ٢٠١٣، دليل المبتدئين في التنمية الذاتية، ط١، مكتبة أفريقيا الشرق، الرباط.

١٤. المعجم الوسيط، ١٩٨٩، مجمع اللغة العربية، ط١، دار الدعوة، اسطنبول.